١

دلالات التسبيح في سورة الإسراء
دراسة موضوعية

Meanings of glorification in Surat Al-Isra
objective study

د. محمد مصحب محمد العبيدي

جامعة تكريت –كلية التربية للعلوم الإنسانية

قسم علوم القرآن

d. muhamad musahab muhamad@@gmail.com

Tikrit-University-Logo for the flags

humanitarian - section flags of the Quran

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي-الجامعة العراقية
كلية التربية للبنات

الملخص

يتناول هذا البحث التسبيح هو العبادة التي ينجي الله بها من المواقف الصعبة، وقد نجى الله تعالى سيدنا يونس وهو في أصعب الظروف عندما كان في بطن الحوت، وفي ظلمات البحر، فنادى ربه بكلمة (سبحانك) فاستجاب له، فدلالات التسبيح في سورة الإسراء في ثلاث آيات قرآنية هي: سبحان الذي، وسبحان ربنا، وسبحان ربي ولا يمكن ان تكون الأشياء تسبح من خلال تنزيه الله عن ما لا يليق، لأن هذا التنزيه خاص بالعاقل، فكيف لغير العاقل ان ينزه الله عقلاً عن ما لا يليق؟ وللإجابة عن هذا التساؤل ظهرت فكرة هذا البحث، وعندما بدأت أغوص في البحث عن آليات تسبيح الأشياء، وجدت أن هذه الآيات الثلاثة في سورة الإسراء فيها دلالات كثيرة تخص التسبيح.

إنّ النظام الواحد الذي يسود في الذرة والمجرّة على السواء يشهد بأنّ الكون بأسره وجد بإرادة خالق وصنع صانع واحد دون أن تكون لأي خالق آخر مشاركة في هذا الخلق والصنع، وأنّ وحدة النظام دليل على وحدة المنظم وعدم الشريك له سبحانه، ومن تصاريف التسبيح فعل الماضي (سبح) وفعل المضارع (يسبح) قال بعض أهل العلم: إنما عبر بالماضي تارة وبالمضارع أخرى ليبين أن ذلك التسبيح لله هو شأن أهل السماوات وأهل الأرض، ودأبهم في الماضي والمستقبل.

الكلمات المفتاحية: التفسير، علوم القرآن، دلالات، التسبيح، الموضوعية

Abstract

This research deals with the glorification with which God saves from difficult situations, and God Almighty saved our master Yunus when he was in the most difficult circumstances when he was in the belly of the whale, the darkness of the sea. With the sane, how can a non-sane person keep his mind clear of what is not worthy of God? And for the land and for reasons, the idea for this party came up. The one system that prevails in the atom and the galaxy alike bears witness that the entire universe was created by the will of a Creator and the making of a single Maker without any other creator having a participation in this creation and making, and that the unity of the system is evidence of the unity of the Organizer and the lack of a partner for Him, Glory be to Him, and among the expenses of glorification is the past action (Glory) and the present tense verb (to glorify) Some scholars said: He only crossed the past sometimes and the present tense at other times to show that that glorification of God is the concern of the people of the heavens and the people of the earth, and their habit in the past and the future.

Keywords: interpretation, Quranic sciences, semantics, glorification, objectivity

المقدمة

الحمدُ لله الذي سبحت الكائنات بحمدهِ، وعنت الوجوه لعظمته ومجده، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهدُ أن محمداً عبدهُ ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين، ومن استن بسنتهم واقتفى أثرهم إلى يوم الدين.

أما بعد:

إنّ المتأمل في سورة الإسراء يجد فيها دلالات وأساليب متعددة ومتنوعة واضحة الدلالة تدل على معانٍ دقيقة، ومقاصد جليّة.

ومن أنواع الدلالات في سورة الإسراء هو التسبيح فمرة يأتي بدلالة سبحان الذي ومرة يأتي بدلالة سبحان ربي، ومرة يأتي بدلالة سبحان ربنا، فهذه الدلالات المتنوعة هي ضرب من ضروب بلاغة القرآن المجيد، فعند تمعن النظر نجد أن هذه الدلالات جاءت على أحسن وجوه البلاغة وأكملها.

من خلال ما تقدم جاء عنوان بحثي بعنوان(دلالات التسبيح في سورة الإسراء –دراسةٌ موضوعية) فهو يسفر عن محتواه في بيان دلالات التسبيح في سورة الإسراء ويرمي إلى إبراز شيء من هذه الدلالات في تنوع صيغها.

١– حدود البحث:

هذا البحث يتناول ثلاث آيات في سورة الإسراء سبحان الذي، وسبحان ربي، ومرة يأتي بدلالة سبحان ربنا، وذكر ما يتضمنه هذا البحث من دلالات في إطار هذه الآيات الثلاث فقط.

٢– أهمية الموضوع وأسباب اختياره:

١– تعلق هذا الموضوع بدلالات سورة الإسراء وهو من المباحث المهمة المتعلقة بالقرآن الكريم.

٢– صلته الوثيقة بعلم التفسير، فدلالات التسبيح ترشد إلى معاني كثيرة في ما تتضمنهُ الآيات من المعاني.

٣– أهداف البحث:

١– بيان الدلالات الواردة في التسبيح في الآيات الثلاثة الآنفة الذكر.

٢– استجلاء آراء المفسرين حول دلالات التسبيح في سورة الإسراء.

٣– محاولة إظهار دلالات هذا التنوع في صيغ التسبيح في سورة الإسراء.

٤– الدراسات السابقة:

١– التسبيح في أوائل سور القرآن الكريم أنواعه ودلالاته، د. فهد بن متعب بن مبارك الدوسري، كلية أصول الدين، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، بحث منشور في مجلة الدراسات العربية.

٢– المسبحات في القرآن الكريم، دراسة دلالية بيانية، إعداد: مريم محمود مصطفى إشراف الدكتور: عمر محمد الأسعد، جامعة الشرق الأوسط، كلية الآداب والعلوم ٢٠١٠–٢٠١١.

٥– خطة البحث:

المبحث الأول: مفهوم الدلالة والتسبيح في القرآن الكريم

المبحث الثاني: التعريف بسورة الإسراء

المبحث الثالث: دلالات التسبيح في سورة الإسراء

ختاماً هذا جهدي فما كان فيه من صواب فمن الله عزوجل، وما كان فيه من زلل وخطأ فمن نفسي والشيطان، واللهُ منهما براء، والحمدُ لله ربّ العالمين.

الباحث

المبحث الأول: مفهوم الدلالة والتسبيح في القرآن الكريم

أولاً: الدلالة في اللغة:

١- «(دَلَّ) الدَّالُ وَاللَّامُ أَصْلَانِ: أَحَدُهُمَا إِبَانَةُ الشَّيْءِ بِأَمَارَةٍ تَتَعَلَّمُهَا، وَالْآخَرُ اضْطِرَابٌ فِي الشَّيْءِ، فَالْأَوَّلُ قَوْلُهُمْ: دَلَلْتُ فُلَانًا عَلَى الطَّرِيقِ. وَالدَّلِيلُ: الْأَمَارَةُ فِي الشَّيْءِ. وَهُوَ بَيِّنُ الدَّلَالَةِ وَالدِّلَالَةِ.»(١)

٢- «(دلل) الدَليلُ: ما يُسْتَدَلُّ به. والدَليلُ: الدالُّ. وقد دَلَّهُ على الطريق يَدُلُّهُ دَلالَةً ودِلالَةً ودُلولَةً، والفتح أعلى.»(٢)

٣- «الدلالة والدلالة: اسم مصدر من دل؛ أو الفتح للمصدر، دلائل ودلالات و«بالكسر»: صناعة الدلال: ما جعلته للدليل وللدلال.»(٣)

ثانياً: الدلالة في الاصطلاح:

١- «هو الذي يلزم من العلم به العلم بشيء آخر.»(٤)

٢- «الدّلالة: ما يتوصّل به إلى معرفة الشيء، كدلالة الألفاظ على المعنى، ودلالة الإشارات».(٥)

من خلال التعريفات اللغوية والاصطلاحية تبين لنا أن الدلالة هو ما يستدل به.

المطلب الثاني: مفهوم التسبيح في اللغة والاصطلاح:

أولاً: التسبيح لغة

١- «والسَّبْح مصدرٌ كالسِّباحة، سَبحَ السابحُ في الماء. والسابح من الخَيْل: الحَسَنُ مَدِّ اليَدَيْن في الجَرْي. والنُجوم تَسْبَح في الفَلَك: تجري في دَوَرانه. والسُّبْحة من الصلاة: التَطَوُّع.»(٦)

(١) معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (ت ٣٩٥هـ)، المحقق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م، ٢/ ٢٥٩.

(٢) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفاراب (ت ٣٩٣هـ)، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين - بيروت، ط٤ ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧م، ٤/ ١٦٩٨.

(٣) معجم متن اللغة (موسوعة لغوية حديثة)، أحمد رضا (عضو المجمع العلمي العربي بدمشق) دار مكتبة الحياة - بيروت: ٢/ ٤٤٤.

(٤) كتاب التعريفات، علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني (ت ٨١٦هـ)، المحقق: ضبطه وصححه جماعة من العلماء، دار الكتب العلمية بيروت -لبنان، ط١ ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م، ١/ ١٠٤.

(٥) المفردات في غريب القرآن، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى (ت ٥٠٢هـ)المحقق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية - دمشق بيروت، ط١ - ١٤١٢هـ: ١/ ٣١٦.

(٦) كتاب العين، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري (ت ١٧٠هـ)، المحقق: د مهدي

٢- «[سبح] وَسبح الرجل وَغَيره فِي المَاء سبحا وسباحة. وَقد جَاءَ فِي التَّنْزِيل: ﴿فِي فلك يسبحون﴾ وَالله أعلم بكتابه، وَسبح الرجل تسبيحا إِذا عظم الله ومجده.»(١)

٣- «(سَبَحَ) السِّينُ وَالْبَاءُ وَالْحَاءُ أَصْلَانِ: أَحَدُهُمَا جِنْسٌ مِنَ الْعِبَادَةِ، وَالْآخَرُ جِنْسٌ مِنَ السَّعْيِ. فَالْأَوَّلُ السُّبْحَةُ، وَهِيَ الصَّلَاةُ، وَيَخْتَصُّ بِذَلِكَ مَا كَانَ نَفْلًا غَيْرَ فَرْضٍ. يَقُولُ الْفُقَهَاءُ: يَجْمَعُ الْمُسَافِرُ بَيْنَ الصَّلَاتَيْنِ وَلَا يُسَبِّحُ بَيْنَهُمَا، أَيْ لَا يَتَنَفَّلُ بَيْنَهُمَا بِصَلَاةٍ. وَمِنَ الْبَابِ التَّسْبِيحُ، وَهُوَ تَنْزِيهُ اللَّهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ مِنْ كُلِّ سُوءٍ. وَالتَّنْزِيهُ: التَّبْعِيدُ. وَالْعَرَبُ تَقُولُ: سُبْحَانَ مِنْ كَذَا، أَيْ مَا أَبْعَدَهُ.»(٢)

ثانياً: التسبيح اصطلاحاً:

١- «والتَّسْبِيحُ: تنزيه الله تعالى. وأصله: المرّ السّريع في عبادة الله تعالى، وجعل ذلك في فعل الخير كما جعل الإبعاد في الشّرّ، فقيل: أبعده الله، وجعل التَّسْبِيحُ عامّا في العبادات قولا كان أو فعلا، أو نيّة.»(٣)

٢- «التَّسْبِيحُ كَلِمَةٌ اسْتَأْثَرَ اللَّهُ بِهَا فَبَدَأَ بِالْمَصْدَرِ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ لِأَنَّهُ الْأَصْلُ ثُمَّ بِالْمَاضِي فِي الْحَدِيدِ وَالْحَشْرِ لِأَنَّهُ أَسْبَقُ الزَّمَانَيْنِ ثُمَّ بِالْمُضَارِعِ فِي الْجُمُعَةِ وَالتَّغَابُنِ ثُمَّ بِالْأَمْرِ فِي الْأَعْلَى اسْتِيعَابًا لِهَذِهِ الْكَلِمَةِ من جَمِيعِ جِهَاتِهَا.»(٤)

المبحث الثاني: التعريف بسورة الإسراء

أولاً: بين يدّي السورة

هذه السورة سورة الإسراء من السور المكية، وهي تبدأ بتسبيح وتنتهي بحمده وتضم موضوعات شتى معظمها عن العقيدة وبعضها عن قواعد السلوك الفردي والجماعي وآدابه القائمة على العقيدة إلى شيء من القصص عن بني إسرائيل يتعلق بالمسجد الأقصى الذي كان إليه الإسراء وطرف من قصة آدم وإبليس وتكريم الله للإنسان وهذه السورة نزلت قبل الهجرة النبوية الشريفة، وهناك من المفسرين من لا يعتقد بمكية تمام السورة، فهي مكية إلا خمس آيات.(٥)

ثانياً: نزولها

ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم لقريش الإسراء وتكذيبهم له، فأنزل له ذلك تصديقاً له، فبعد أن عاد النبي صلى الله عليه وسلم من الإسراء والمعراج خرج إلى المسجد الحرام وأخبر به قريشاً فتعجبوا من لاستحالة ذلك في نظرهم، ولكن لم يُذكر في سورة

المخزومي، د إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال: ٣/ ١٥٢.

(١) جمهرة اللغة، أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي (ت ٣٢١هـ)، المحقق: رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين – بيروت ط١، ١٩٨٧م، ١/ ٢٧٧.

(٢) معجم مقاييس اللغة، ٣/ ١٢٥.

(٣) المفردات في غريب القرآن: ١/ ٣٩٢.

(٤) الإتقان في علوم القرآن، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ)، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط١، ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م: ٣/ ٣٦١.

(٥) ينظر: التبيان في تفسير القرآن: ٦/ ٤٤٣، مجمع البيان في تفسير القرآن: ٦/ ٢٤٥.

الإسراء سببًا لنزولها عامّة، فلم يذكر العلماء المشتغلين بأسباب النزول شيئًا عن نزولها عامة، ومنهم السيوطي، ولكن ارتبط نزول سورة الإسراء بحدث كبير وخطير كان له صداه في المجتمع العربي آنذاك، وهذا الحدث هو المعجزة الكبرى الثابتة للنبي الأكرم صلى الله عليه وسلم) بعد القرآن الكريم، وهو إسراؤه من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ثم عروجه إلى السماء فيما عُرف بعد ذلك بالإسراء والمعراج، وكان ذلك بمكة حيث صلى المغرب في المسجد الحرام ثم أسري به في ليلته ثم رجع فصلى في المسجد الحرام».[1]

وقد ورد هذا الأمر صريحاً في قوله تعالى: ﴿ سُبْحَانَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾[2]

ثالثاً: تسميتها وعدد آياتها

أطلق على سورة الإسراء اسم بني إسرائيل، ويعود سبب تلك التسمية إلى ذكر الكثير من أخبار قوم بني إسرائيل فيها وكيف كان إفسادهم في الأرض واستيلاء الآشوريين عليهم، ويذكر أنَّ الاسم الذي كان متداولًا في عهد الصحابة لسورة الإسراء هو سورة «بني إسرائيل» كما ورد ذلك في صحيح البخاري وسنن الترمذي وما وتُسمى أيضًا بسورة سبحان لأن السورة افتتحت بقول الله -تعالى- «سبحان»، وقد ذكر الطاهر بن عاشور في كتابه التحرير والتنوير أنَّ سورة الإسراء تطلق عليها الأسماء الثلاثة -سابقة الذكر- وقد سميت في كثير من المصاحف باسم الإسراء، مَكِّيَّة وَقد ذكر نظيرتها فِي الْكُوفِي والشامي وَلَا نَظِير لَهَا فِي غَيرهمَا وكلمها ألف وَخمْس مئة وَثَلَاث وَثَلَاثُونَ كلمة وحروفها سِتَّة آلَاف وَأَرْبع مئة وَسِتُّونَ حرفا وَهِي مئة وَإِحْدَى عشرَة آيَة فِي الْكُوفِي وَعشرا فِي عدد البَاقِينَ اختلافها آيَة (﴿للأذقان سجدا﴾) عدهَا الْكُوفِي وَلم يعدها الْبَاقُونَ وفيهَا مِمَّا يشبه الفواصل وَلَيْسَ معدودا بِإِجْمَاع سِتَّة مَوَاضِع (﴿أولي بَأْس شَدِيد﴾ وَمن قتل مَظْلُوما) ﴿إِلَّا أَن كذب بهَا الْأَولونَ﴾ أَو معذبوها عذَابا شَدِيدا ﴿وَرَحْمَة للْمُؤْمِنين﴾ وبكما وصما.[3]

رابعاً: مناسبتها لما قبلها

أنهُ تعالى بعد أن قال في آخر سورة النحل، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾[4]

فسر في هذه السورة شريعة أهل السبت وشانهم، وذكر جميع ما شرعه لهم في التوراة فقد

(١) ينظر: مجمع البيان: ٦/ ٢٤٧.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ١.

(٣) ينظر: البيان في عدّ آي القرآن، عثمان بن سعيد بن عثمان بن عمر أبو عمرو الداني (ت ٤٤٤هـ)، المحقق: غانم قدوري الحمد، مركز المخطوطات والتراث - الكويت، ط١ ١٤١٤هـ ١٩٩٤م، ١/ ١٧٧.

(٤) سورة النحل، الآية: ١٢٤.

أخرجه أبن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: (إنّ التوراة كلها في خمس عشر آية من سورة بني إسرائيل).[1]

إنّه لما أمر نبيه صلى الله عليه وسلم بالصبر والنهي عن الحزن وضيق الصدر من مكرمهم، وفي السورة السالفة ذكر هنا شرفه وعلو منزلته عند ربه، وذكر في السورة السالفة نعماً كثيرة حتى سميت لأجلها سورة النعم وذكر هذا أيضاً نعماً خاصة وعامة.[2]

المبحث الثالث: دلالة التعظيم لله عزوجل في الإسراء والمعراج

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ سُبْحَانَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١ ﴾[3]

إنّ افتتاح السورة بالتسبيح دلالة على أنّ الإسراء بالنبي محمد (صلى الله عليه وسلم) من المعجزات العظيمة التي تثير دهشة السامع واستغرابه، فلا يملك إلا أنّ يسبح الله تنزيهاً له وفي هذا دليل على أنّ الإسراء في حال اليقظة، وهو إسراء بالجسم والروح لا أنه حدث في المنام؛ لأنّ التسبيح إنّما يكون عند الأمور العظام، فلو كان الإسراء في المنام لم يكن أمراً كبيراً ولم يكن مستعظماً حتى يسبح الله جل وعلا عند ذكره.[4]

وكذلك من الدلالات في سورة الإسراء مجيء التسبيح بصيغة المصدر؛إذ (سبحان) هنا اسم وضع موضع المصدر، فينصب لوقوعه موقعه، وهو مصدر غير متمكن، لأنه لا يجري بوجوه الإعراب، ولا تدخل عليه الألف واللام.[5]

« وكلمة سبحان كلمة ممتنعة لا يجوز أن يوصف بها غير الله جل وعلا؛ لأن المبالغة في التعظيم لا تليق لغير الله، ولا تنصرف حسب ما ينصرف كثير من المصادر؛ لأنه لما لم يستقم الوصف به لغير الله، ولم تتصرف جهاته لزم منهاجاً واحداً في الصرف.»[6]

وقد افتتح الله تعالى هذه السورة بالثناء على نفسه، ومعنى سبحان الله: براءة الله من السوء، وتنهزيه منه، ومعنى التسبيح هنا تنزيه الله تعالى – الذي أسرى بعبده– من كل سوء، وتبرئته من كل نقص يقوله فيه المشركون من أن له من خلقه شريكاً، وأن له صاحبة وولداً، وعلوا له وتعظيماً عما أضافوه إليه ونسبوه من

(١) ينظر: التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، وهبة الزحيلي، دمشق – دار الفكر، ط١ ٨/ ٦.

(٢) ينظر: تفسير المراغي، المراغي، شركة ومطبعة البابي الحلبي، ط١، ٤/ ١٥.

(٣) سورة الإسراء، الآية: ١.

(٤) ينظر: الوجوه والنظائر الحسين بن محمد الدامغاني، لألفاظ كتاب الله العزيز، مطابع الأهرام التجارية، القاهرة، ٢٠٠٣م١/ ٤٤٧.

(٥) ينظر: جامع البيان، للطبري: ٨/ ٣، المحرر الوجيز، لابن عطية: ٦/ ١٤٨.

(٦) تفسير القرآن، أبو المظفر، منصور بن محمد بن عبد الجبار ابن أحمد المروزي السمعاني التميمي الحنفي ثم الشافعي (ت ٤٨٩هـ)، المحقق: ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس بن غنيم، دار الوطن، الرياض – السعودية، ط١، ١٤١٨هـ– ١٩٩٧م، ٣/ ٢١٢.

جهالاتهم وخطأ قولهم.[1]

ولا شك في أن ابتداء السورة بالتسبيح فيه من براعة الاستهلال، وجمال الاستفتاح ومناسبة السياق ما لا يخفى، فإنه لمّا كان الإسراء أمراً خارقاً للعادة بدأ السورة بما يشير إلى كمال القدرة، والتنزه عن صفات النقص.[2]

لا يوجد شيء في هذا الوجود الفسيح اللامتناهي إلا ويسبح بحمد الله سبحانه وتعالى ولكن بطرائق يصعب على الإنسان إدراكها! بداية من الجسيمات الأولية للكون. ومرورا بجميع الكائنات الحية في السماء والأرض. ونهاية برفات الأموات وما يتحلل عنها من عناصر ومركبات وجزيئات وذرات وجسيمات أولية كل ذلك قانت عابد، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴿٤٤﴾[3].

«في معنى التّسبيح ها هنا قولان: أحدهما: أن العرب تسبِّح عند الأمر المعجب فكأن الله تعالى عجَّب العباد مما أسدى إلى رسوله من النعمة. والثاني: أن يكون خرّج الرّدّ عليهم، لأنه لمّا حدّثهم بالإسراء، كذبوه، فيكون المعنى: تنزه الله أن يتخذ رسولا كذاباً ولا خلاف أن المراد بعبده هاهنا: محمّد صلى الله عليه وسلّم.»[4]

هذا التسبيح الشامل يشمل كل المخلوقات إذ أعاد على السموات وَالْأَرْضِ ضَمِيرَ مَنْ يَعْقِلُ، لَمَّا أَسْنَدَ إِلَيْهَا فعل العاقل وهو التسبيح وقوله: « وَمَنْ فِيهِنَّ» يُرِيدُ الْمَلَائِكَةَ وَالْإِنْسَ وَالْجِنَّ، ثُمَّ عَمَّ بَعْدَ ذَلِكَ الْأَشْيَاءَ كُلَّهَا فِي قَوْلِهِ: « وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ» وَاخْتُلِفَ فِي هَذَا الْعُمُومِ، هَلْ هُوَ مُخَصَّصٌ أَمْ لَا، فَقَالَتْ فِرْقَةٌ: لَيْسَ مَخْصُوصًا وَالْمُرَادُ بِهِ تَسْبِيحُ الدَّلَالَةِ، وَكُلُّ مُحْدَثٍ يَشْهَدُ عَلَى نَفْسِهِ بِأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ خَالِقٌ قَادِرٌ. وَقَالَتْ طائفة: هذا التسبيح حقيقة، وكل شيء عَلَى الْعُمُومِ يُسَبِّحُ تَسْبِيحًا لَا يَسْمَعُهُ الْبَشَرُ وَلَا يَفْقَهُهُ، وَلَوْ كَانَ مَا قَالَهُ الْأَوَّلُونَ مِنْ أَنَّهُ أَثَرُ الصَّنْعَةِ وَالدَّلَالَةِ لَكَانَ أَمْرًا مَفْهُومًا، وَالْآيَةُ تَنْطِقُ بِأَنَّ هَذَا التَّسْبِيحَ لَا يُفْقَهُ. وَأُجِيبُوا بِأَنَّ الْمُرَادَ بِقَوْلِهِ: « لَا تَفْقَهُونَ» الْكُفَّارُ الَّذِينَ يُعْرِضُونَ عَنْ الِاعْتِبَارِ فَلَا يَفْقَهُونَ حِكْمَةَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي الْأَشْيَاءِ.[5]

(١) ينظر: لطائف الإشارات، للقشيري: ٢/ ٣٣٣، الهداية إلى بلوغ النهاية، لمكي: ٦/ ٤١٣٢، روح المعاني، للآلوسي: ٨/ ٥.

(٢) ينظر: التفسير المنير، الزحيلي: ٩/ ١٥.

(٣) سورة الإسراء، الآية: ٤٤.

(٤) زاد المسير في علم التفسير، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (ت ٥٩٧هـ)، المحقق: عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي – بيروت، ط١ – ١٤٢٢هـ: ٣/ ٨.

(٥) ينظر: الجامع لأحكام القرآن، تفسير القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (ت ٦٧١هـ)، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش الناشر: دار الكتب المصرية – القاهرة، ط٢، ١٣٨٤هـ– ١٩٦٤م، ١٠/ ٢٦٦.

« سبحوا الرب من السماوات، سبحوه من العلى يا جميع ملائكته وكل جنوده تسبحه الشمس والقمر يسبحانه، وجميع الكواكب والنور تسبحه، يسبح الرب سماء الدنيا والمياه التي فوق السماوات، تسبح جميعاً اسم الرب لأنه قال فكانوا، وأمر فخلقوا وأقامهم إلى الأبد والدهر، جعل لها مقدراً لا تتجاوزه، يسبح الرب من في الأرض التنانين وجميع الأعماق، النار والبرد والثلج والجليد والريح العاصفة عملت كلمته الجبال وكل الآكام، الشجر المثمرة وجميع الأرز، السباع وكل البهائم والوحوش وكل حيوان وكل طائر ذي جناح، ملوك الأرض وسائر الشعوب العظماء وجميع حكام الأرض، الشبان والعذارى والشيوخ والصبيان يسبحون اسم الرب، لأن اسمه قد تعالى وحده».[1]

«فما من حيوان ناطق وغير ناطق ومن أشجار ونبات وجامد وحي وميت ﴿إِلا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ بلسان الحال ولسان المقال. ﴿وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ أي: تسبيح باقي المخلوقات التي على غير لغتكم بل يحيط بها علام الغيوب.

﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ حيث لم يعاجل بالعقوبة من قال فيه قولا تكاد السماوات والأرض تتفطر منه وتخر له الجبال ولكنه أمهلهم وأنعم عليهم وعافاهم ورزقهم ودعاهم إلى بابه ليتوبوا من هذا الذنب العظيم ليعطيهم الثواب الجزيل ويغفر لهم ذنبهم، فلولا حلمه ومغفرته لسقطت السماوات على الأرض ولما ترك على ظهرها من دابة.»[2]

ويسبّح له من في السّموات، ويسجد له من في الأرض، لأنّ هذا ممّا نفقهه، ولأنه محال أن يكون ذلك تقديره، ثم يعطف عليه بقوله: وَمَنْ فِيهِنَّ والأشياء كلّها تسبّح له وتسجد بعضها بالتّسخير وبعضها بالاختيار، ولا خلاف أنّ السّموات والأرض والدّوابّ مُسَبِّحَاتٌ بالتّسخير، من حيث إنّ أحوالها تدلّ على حكمة الله تعالى، وإنّما الخلاف في السموات والأرض هل تسبّح باختيار؟ والآية تقتضي ذلك بما ذكرت من الدّلالة و(سُبْحَانَ) أصله مصدر نحو: غفران.[3]

«والأَشياء تسبّح وتسجد، بعضها بالتَّسخير وبعضها بالاختيار، ولا خلاف أَنَّ السماوات والأَرض والدّوابّ مسبِّحات بالتَسخير، من حيث إِنَّ أَحوالها تدلّ على حكمة الله تعالى وإِنما الخلاف في السماوات والأَرض هل تسبّح باختيار، والآية تقتضى ذلك، وسُبحانَ اللهِ أَي تنزيهاً لله من الصّحابة والولد. وهى معرفة ونصبها على المصدر، أَي أُبْرِىء الله من

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي (ت ٨٨٥هـ)، دار الكتب العلمية – بيروت – ١٤١٥-هـ – ١٩٩٥م، ٤/ ٣٨٦.

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي (ت ١٣٧٦هـ) المحقق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، ط١ ١٤٢٠هـ ٢٠٠٠م، ١/ ٤٥٨.

(٣) ينظر: المفردات في غريب القرآن: ١/ ٣٩٣.

السّوءِ براءَةً، أَو معناه السرعة إِليه والخِفَّة في طاعته. وسبحان مِن كذا: تَعَجُّبٌ منه.»[1]

وفي دلالة التسبيح في قوله تعالى:﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾﴾[2].

«قال سبحان ربي أي قال الرسول. و(سبحان ربي) تعجب من اقتراحاتهم عليه هَلْ كُنتُ إِلاَّ (رسولاً كسائر الرسل) بَشَرًا مثلهم، وكان الرسل لا يأتون قومهم إلا بما يظهره الله عليهم من الآيات، فليس أمر الآيات إليّ، إنما هو إلى الله فما بالكم تتخيرونها عليّ».[3]

وهو تعجب من الرسول صلى الله عليه وسلم مما طلبوا منه فقَالَ سُبْحَانَ رَبِّي» يَعْنِي النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَيْ قَالَ ذَلِكَ تَنْزِيهًا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَنْ أَنْ يعجز عن شي وَعَنْ أَنْ يُعْتَرَضَ عَلَيْهِ فِي فِعْلٍ. وَقِيلَ: هَذَا كُلُّهُ تَعَجُّبٌ عَنْ فَرْطِ كُفْرِهِمْ وَاقْتِرَاحَاتِهِمْ.[4]

والكلام فيه تنزيه بكلمة سبحان ربي في الدلالة على التنزيه عن أن يكون له شريك في ملكه يطلب منه ما لا يطلب إلا من الإله، فهو تنزيه لله وتعجيب منه لوضوح عنادهم بطلبهم ما لا قدرة عليه إلا للإله ممن لا قدرة له على شيء منه إلا بإذن الله، ولم يدّع قط أنه قادر على شيء منه، فحسن الاستفهام جداً في قوله تعالى: هل كنت إلا بشراً لا يقدر على غير ما يقدر عليه البشر رسولاً كما كان من قبلي من الرسل، لا أتعدى ما أمرت به من التبليغ، فلا آتي بشيء إلا بإذن الله، ولم أقل: إني إله، حتى يطلب مني ما يطلب من الإله ورتبوا أنفسهم هذا الترتيب لأنهم حصروا حاله في دعوى أن يكون عظيماً بالرسالة أو غيرها ليتبعه الناس، فإن كان الأول كان مقبول القول عند مرسله، وحينئذ فإما أن يسأله في نفع عام بالينبوع، أو خاص به بالجنة إن بخل بالعام، أو ضر بالكشف أو يسأله في الإتيان مع جنده لأن يصدقه، وإن كنت عظمته بغير ذلك فإما أن يكون ملكاً ليكون له البيت المذكور بما جرت العادة أن يكون تابعاً له، أو يكون ممن يجتمع بالملك الذي أرسله فيرقى على ما قالوا.[5]

«يعنى ليس ما سألتم في طوق البشر بل لو أراد الله ان ينزل ما طلبوا لفعل ولكنه لا ينزل الآيات على ما يقترحه البشر غالبا وقد اعطى الله تعالى لرسوله من الآيات والمعجزات ما يغنى عن هذا كله مثل القران وانشقاق القمر ونبع الماء من بين الأصابع وما أشبهها وهذا هو الجواب المجمل.»[6]

«قُلْ سُبْحانَ رَبِّي تعجبا من اقتراحاتهم هَلْ كُنْتُ

(١) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروز آبادى (ت ٨١٧هـ)، المحقق: محمد علي النجار، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة: ٣/ ١٧٣.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٩٣.

(٣) تفسير السمعاني: ٢/ ٦٤٩.

(٤) ينظر: الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ١٠/ ٣٣١.

(٥) ينظر: نظم الدرر في تناسب السور، للبقاعي: ٤/ ٤٢٦.

(٦) التفسير المظهري، المظهري، محمد ثناء الله، المحقق: غلام نبي التونسي، مكتبة الرشدية - الباكستان، ط١، ١٤١٢هـ: ٥/ ٤٩٣.

إِلَّا بَشَراً رَسُولًا أي أنا رسول كسائر الرسل، بشر مثلهم، والرسل لا يأتون قومهم إلا بما يظهره الله على أيديهم من المعجزات، فليس أمر الآيات إليّ، إنما هو إلى الله، فما بالكم تطلبونها مني وتقترحونها عليّ».[1]

«وهو كسائر الرسل عليهم السلام وكانوا لا يأتون قومهم إلا بما يظهره الله تعالى على أيديهم حسبما تقتضيه الحكمة من غير تفويض إليهم فيه ولا تحكم منهم عليه سبحانه وبشرا خبر كان ورسولا صفته وهو معتمد الكلام وكونه بشرا توطئة لذلك ردا لما أنكروه من جواز كون الرسول بشرا ودلالة على أن الرسل عليهم السلام من قبل كانوا كذلك ولهذا قال الزمخشري هل كنت إلا رسولا كسائر الرسل بشرا مثلهم وزعم بعض أن ذكر بشرا ليس للتوطئة فإن طلب القوم منه عليه الصلاة والسلام ما طلبوه يحتمل أن يكون طلب أن يأتي به بقدرة نفسه ويحتمل أن يكون طلب أن يأتي به بقدرة الله تعالى فذكر بشرا لنفي أن يأتي بذلك بقدرة نفسه كأنه قال: هل كنت إلا بشرا والبشر لا قدرة له على الإتيان بذلك وذكر رسولا لنفي أن يأتي به بقدرة الله تعالى كأنه قيل هل كنت إلا رسولا والرسول لا يتحكم على ربه سبحانه.»[2]

وفي دلالة التسبيح في قوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾[3].

«أي تنزه الموجد لنا، المدبر لأمورنا، المحسن إلينا، عن شوائب النقص، لأنه وعد على ألسنة رسلنا أن يبعثنا بعد الموت ووعده الحق، فلا بد أن يكون، ووعد أن يأتي بهذا الكتاب على لسان هذا النبي العربي، وأوصل هذا الوعد إلينا في الكتب السالفة فأنجز ما سبق به وعده إن أي أنه كان أي كوناً لا ينفك وعد ربنا المحسن إلينا بالإيمان، وما تبعه من وجوه العرفان لمفعولاً دون خلف، ولا بد أن يأتي جميع ما وعد به من الثواب والعقاب، وهو تعريض بقريش حيث كانوا يستهزئون بالوعيد في قولهم أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً ونحوه مما معناه الطعن في قدرة الله.»[4] «أَيْ: يَقُولُونَ فِي سُجُودِهِمْ تَنْزِيهًا لِرَبِّنَا عَمَّا يَقُولُهُ الْجَاهِلُونَ مِنَ التَّكْذِيبِ أَوْ تَنْزِيهًا لَهُ عَنْ خَلْفِ وَعْدِهِ إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا إِنْ هَذِهِ هِيَ الْمُخَفَّفَةُ مِنَ الثَّقِيلَةِ وَاللَّامُ هِيَ الْفَارِقَةُ. ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّهُمْ خَرُّوا لِأَذْقَانِهِمْ بَاكِينَ فَقَالَ: وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقانِ يَبْكُونَ وَكَرَّرَ ذِكْرَ الْخُرُورِ لِلْأَذْقَانِ لِاخْتِلَافِ السَّبَبِ، فَإِنَّ الْأَوَّلَ لِتَعْظِيمِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَنْزِيهِهِ وَالثَّانِي لِلْبُكَاءِ بِتَأْثِيرِ مَوَاعِظِ الْقُرْآنِ فِي قُلُوبِهِمْ وَمَزِيدِ خُشُوعِهِمْ، وَلِهَذَا قَالَ: وَيَزِيدُهُمْ أَيْ: سَمَاعُ الْقُرْآنِ، أَوِ الْقُرْآنُ بِسَمَاعِهِمْ لَهُ خُشُوعاً أَيْ: لِينَ

(١) الأساس في التفسير، سعيد حوّى (ات ١٤٠٩ هـ)، دار السلام – القاهرة ط٦، ١٤٢٤هـ: ٦/ ٣١٢٢.

(٢) روح المعاني، الألوسي، الكتاب: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، أبو المعالي محمود شكري بن عبد الله بن محمد بن أبي الثناء الألوسي (ت ١٣٤٢هـ)، دار إحياء التراث العربي – بيروت: ١٥/ ١٦٩.

(٣) سورة الإسراء، الآية: ١٠٨.

(٤) نظم الدرر في تناسب الآي والسور، للبقاعي: ٤/ ٤٣٦.

قَلْبٍ وَرُطُوبَةَ عَيْنٍ.»[1].

ومما يمكن أن ويكون التنوع في اختلاف دلالات التسبيح في سورة الإسراء هو أن الله عزوجل بدأ بالمصدر في سورة الإسراء لأنه الأصل، وثنى بالماضي في الحديد والحشر والصف لأنه أسبق الزمانيين، وثلث بالمضارع في الجمعة والتغابن للدلالة على الديمومة والاستمرار، وختم بالأمر استعياباً لمعنى التسبيح على جميع الجهات، وهذا من أبرز الدلائل في سورة الإسراء.[2]، فَمَدَحَهُمْ بِهَذَا الْقَوْلِ عِنْدَ السُّجُودِ فَدَلَّ عَلَى أَنَّ الْمَسْئُولَ فِي السُّجُودِ مِنْ الذِّكْرِ هُوَ التَّسْبِيحُ.[3]، فهم قد نزَّهوا الله تعالى عن تكذيب المكذِّبين بالقرآن، وقالوا: إِنْ كانَ وَعْدُ رَبِّنا بإنزال القرآن وبعثِ محمّد صلى الله عليه وسلّم لَمَفْعُولًا واللام دخلت للتوكيد. وهؤلاء قوم كانوا يسمعون أن الله باعثٌ نبيّاً من العرب، ومُنزِلٌ عليه كتاباً، فلما عاينوا ذلك، حمدوا الله تعالى على إنجاز الوعد وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقانِ كرَّر القول ليدل على تكرار الفعل منهم. وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً أي: يزيدهم القرآن تواضعاً.[4]

«أي ينزهونه ويعظمونه إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً أي بإنزال القرآن وبعث محمد وهذا يدل على أن هؤلاء كانوا من أهل الكتاب لأن الوعد ببعثة محمد سبق في كتابهم فهم كانوا ينتظرون إنجاز ذلك الوعد ثم قال وَيَخِرُّونَ لِلْاَذْقَانِ يَبْكُونَ والفائدة في هذا التكرير اختلاف الحالين وهما خرورهم للسجود وفي حال كونهم باكين عند استماع القرآن ويدل عليه قوله وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ويجوز أن يكون تكرار القول دلالة على تكرار الفعل منهم وقوله يَبْكُونَ معناه الحال وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا أي تواضعاً واعلم أن المقصود من هذه الآية تقرير تحقيرهم والازدراء بشأنهم وعدم الاكتراث بهم وبإيمانهم وامتناعهم منه وأنهم وإن لم يؤمنوا به فقد آمن به من هو خير منهم.»[5]

«وَيَقُولُونَ سُبْحانَ رَبِّنا عن خلف الموعد. إِنْ كانَ وَعْدُ رَبِّنا لَمَفْعُولًا إنه كان وعده كائناً لا محالة وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقانِ يَبْكُونَ كرره لاختلاف الحال والسبب فإن الأول للشكر عند إنجاز الوعد والثاني لما أثر فيهم من مواعظ القرآن حال كونهم باكين من خشية الله، وذكر الذقن لأنه أول ما يلقى الأرض من وجه الساجد، واللام فيه لاختصاص الخرور به. وَيَزِيدُهُمْ سماع

(١) فتح القدير، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني (ت ١٢٥٠هـ)، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب – دمشق، بيروت، ط١– ١٤١٤هـ: ٣/ ٣١٤.

(٢) ينظر: البرهان في توجيه متشابه القرآن الكريم، للكرماني: ٢٣٢، وغرائب التفسير وعجائب التأويل للكرماني: ٦١٩/١.

(٣) ينظر: أحكام القرآن، أحمد بن علي أبو بكر الرازي الجصاص الحنفي (ت ٣٧٠هـ)، المحقق: محمد صادق القمحاوي – عضو لجنة مراجعة المصاحف بالأزهر الشريف دار إحياء التراث العربي – بيروت، ١٤٠٥هـ: ٥/ ٣٦.

(٤) ينظر: زاد المسير في علم التفسير، ٣/ ٥٩.

(٥) مفاتيح الغيب، الإمام العالم العلامة والحبر البحر الفهامة فخر الدين محمد بن عمر التميمي الرازي الشافعي، دار الكتب العلمية – بيروت – ١٤٢١هـ – ٢٠٠٠م، ط١: ٥٨/٢١.

القرآن خُشُوعاً كما يزيدهم علما ويقينا بالله.»[1]

وفي قوله تعالى: ﴿ سُبْحَانَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّٗا كَبِيرٗا ﴿٤٣﴾﴾[2].

لما أقام الدليل القاطع على كونه منزهاً عن الشركاء وعلى أن القول بإثبات الآلهة قول باطل أردفه بما يدل على تنزيهه عن هذا القول الباطل فقال سُبْحَانَهُ وقد ذكرنا أن التسبيح عبارة عن تنزيه الله تعالى عما لا يليق به ثم قال وَتَعَالَى والمراد من هذا التعالي الارتفاع وهو العلو وظاهر أن المراد من هذا التعالي ليس هو التعالي في المكان والجهة لأن التعالي عن الشريك والنظير والنقائص والآفات لا يمكن تفسيره بالتعالي بالمكان والجهة فعلمنا أن لفظ التعالي في حق الله تعالى غير مفسر بالعلو بحسب المكان والجهة[3].

سُبْحانَهُ ينزه تنزيهاً. وَتَعالى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا تعالياً. كَبِيراً متباعداً غاية البعد عما يقولون، فإنه في أعلى مراتب الوجود وهو كونه واجب الوجود والبقاء لذاته، واتخاذ الولد من أدنى مراتبه فإنه من خواص ما يمتنع بقاؤه، تُسَبِّحُ لَهُ السَّماواتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ينزهه عما هو من لوازم الإمكان وتوابع الحدوث بلسان الحال حيث تدل بإمكانها وحدوثها على الصانع القديم الواجب لذاته. وَلكِنْ لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ أيها المشركون لإخلالكم بالنظر الصحيح الذي به يفهم تسبيحهم، ويجوز أن يحمل التسبيح على المشترك بين اللفظ والدلالة لإسناده إلى ما يتصور منه اللفظ وإلى ما لا يتصور منه وعليهما عند من جوز إطلاق اللفظ على معنييه. وقرأ ابن كثير وابن عامر ونافع وأبو بكر «يسبح» بالياء. إِنَّهُ كانَ حَلِيماً حيث لم يعاجلكم بالعقوبة على غفلتكم وشرككم. غَفُوراً لمن تاب منكم.[4]

و(سبحانه) أي تنزه التنزه الأعظم عن كل شائبة نقص وتعالى أي علا أعظم العلو بصفات الكمال عما يقولون من هذه النقائض التي لا يرضاها لنفسه أحد من عقلاء خلقه فضلاً عن رئيس من رؤسائكم، فكيف بالعلي الأعلى وأتى بالمصدر المجرد في قوله تعالى: علواً إيذاناً بأن الفعل مجرد في الحقيقة وإن أتى به على صيغة التفاعل إيذاناً بالمبالغة كبيراً لا تحتمل عقولكم الوقوف على حقيقته ولا تدركون منه أكثر من مفهوم هذا الوصف عندكم بحسب ما تتعارفونه.[5]

تقدسه السموات السبع والأرض، ومن فيهن أي من المخلوقات، وتنزهه وتعظمه وتبجّله وتكبّره عمّا يقول هؤلاء المشركون، وتشهد له بالوحدانية في ربوبيته وإلهيته وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ أي وما من شيء من المخلوقات إلا يسبّح بحمد الله أي يقول سبحان الله وبحمده بلسان المقال، أو بلسان الحال،

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل: ٣/ ٢٧٠.
(٢) سورة الأسراء، الآية ٤٣.
(٣) مفاتيح الغيب: ٢٠/ ١٧٤.
(٤) أنوار التنزيل: ٣/ ٢٥٧.
(٥) نظم الدرر: ٤/ ٣٨٤.

لأنه يدل الناظر إليه على تنزه الله، والدال على الخير كفاعله، والأرجح أن تسبيح الأشياء بلسان المقال وَلكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إما لاختلاف اللغات أو لتعسر الإدراك قال ابن كثير: أي لا تفقهون تسبيحهم أيها الناس لأنها بخلاف لغاتكم. وهذا عام في الحيوانات والجمادات والنباتات، وهذا أشهر القولين. إِنَّهُ كانَ حَلِيماً أي لا يعاجل من عصاه بالعقوبة، بل يؤجله وينظره، فإن استمر على كفره وعناده أخذه غَفُوراً لمن أقلع عما هو فيه من كفر أو عصيان، ورجع إلى الله وتاب إليه، فيا أيها الناس توبوا إلى الله ونزّهوه كما ينزهه كل شيء، واتخذوا إليه سبيلا يقربكم إليه.[1]

الخاتمة

في ختام البحث ظهرت لنا عدّة نتائج تناثرت في طياته نوجزها بالآتي:

١- الأصلُ في التسبيح تنزيه الله تعالى من كل سوء، سواءً كان بالنية أو بالقول، أو بالفعل وهو مختص بالباري عزوجل.

٢- جاء التسبيح في سورة الإسراء في ثلاث آيات هي: سبحان الذي، وسبحان ربي، وسبحان ربنا، وهذه الآيات لها دلالات هي كانت محور البحث وعموده.

٣- أصل صيغ التسبيح هي صيغة المصدر، وهي الواردة في أول سورة الإسراء وصدور التسبيح منه تعالى فيه تعجيب للسامعين، فالتعجب مستحيل أن يكون منه تعالى؛ فالمتكلم لا يتعجب من فعل نفسه.

٤- إن سورة الإسراء كل آية فيها بل كل كلمة إعجاز ومعجزة واستشراف للمستقبل وهي تقطع بكل كلمة فيها أن هذا القرآن الكريم كلام الله عزّ وجلّ... معجزة بيانية في التعبير... وتحقّقاً في الواقع تراه العقول والعيون.

٥- إنّ فهم هذه المفاهيم يخدم النهج والنسق والأسلوب المتبع في هذا البحث، لأن استيعاب هذه المصطلحات يشكل رافعة معرفية ضرورية تؤدي إلى فهم أكثر عمقاً وشمولية لجوهر نظرية التسبيح في القرآن الكريم.

ثبت المصادر والمراجع بعد القرآن الكريم

١. الإتقان في علوم القرآن، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ)، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط١، ١٣٩٤ه ١٩٧٤م.

٢. أحكام القرآن، أحمد بن علي أبو بكر الرازي الجصاص الحنفي (ت ٣٧٠هـ)، المحقق: محمد صادق القمحاوي - عضو لجنة مراجعة المصاحف بالأزهر الشريف دار إحياء التراث العربي - بيروت، ١٤٠٥هـ.

٣. الأساس في التفسير، سعيد حوّى (ات ١٤٠٩ هـ)، دار السلام - القاهرة ط٦، ١٤٢٤ه.

(١) الأساس في التفسير: ٦/ ٣٠٨٠.

٤. أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (ت ٦٨٥هـ)، المحقق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي – بيروت ط١– ١٤١٨ه.

٥. البرهان في توجيه متشابه القرآن الكريم، للكرماني: ٢٣٢، وغرائب التفسير وعجائب التأويل للكرماني.

٦. بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروز آبادى (ت ٨١٧هـ)، المحقق: محمد علي النجار المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة.

٧. البيان في عدّ آي القرآن، عثمان بن سعيد بن عثمان بن عمر أبو عمرو الداني (ت ٤٤٤هـ)، المحقق: غانم قدوري الحمد، مركز المخطوطات والتراث – الكويت، ط١ ١٤١٤هـ ١٩٩٤م.

٨. تاج العروس من جواهر القاموس، محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني (ت ١٢٠٥هـ)، المحقق: مجموعة من المحققين، دار الهداية.

٩. تفسير البحر المحيط، محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي، دار الكتب العلمية لبنان– بيروت – ١٤٢٢ هـ – ٢٠٠١م ط١.

١٠. تفسير القرآن، أبو المظفر، منصور بن محمد بن عبد الجبار ابن أحمد المروزي السمعاني التميمي الحنفي ثم الشافعي (ت ٤٨٩هـ)، المحقق: ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس بن غنيم، دار الوطن، الرياض – السعودية، ط١، ١٤١٨هـ– ١٩٩٧م.

١١. تفسير المراغي، المراغي، شركة ومطبعة البابي الحلبي، ط١.

١٢. التفسير المظهري، المظهري، محمد ثناء الله، المحقق: غلام نبي التونسي، مكتبة الرشدية – الباكستان، ط١، ١٤١٢هـ.

١٣. التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، وهبة الزحيلي، دمشق – دار الفكر، ط١.

١٤. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي (ت ١٣٧٦هـ) المحقق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق مؤسسة الرسالة، ط١ ١٤٢٠هـ ٢٠٠٠م.

١٥. الجامع لأحكام القرآن، تفسير القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (ت ٦٧١هـ)، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش الناشر: دار الكتب المصرية – القاهرة، ط٢، ١٣٨٤هـ– ١٩٦٤م.

١٦. جمهرة اللغة، أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي (ت ٣٢١هـ)، المحقق: رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين – بيروت ط١، ١٩٨٧م.

١٧. روح المعاني، الألوسي، الكتاب: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، أبو المعالي محمود شكري بن عبد الله بن محمد بن أبي الثناء الألوسي (ت ١٣٤٢هـ)، دار إحياء التراث العربي – بيروت.

١٨. زاد المسير في علم التفسير، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (ت ٥٩٧هـ)، المحقق: عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي – بيروت، ط١ – ١٤٢٢هـ.

١٩. الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي (ت ٣٩٣هـ)، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين – بيروت، ط٤ ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧م.

٢٠. فتح القدير، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني (ت ١٢٥٠هـ)، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب – دمشق، بيروت، ط١ – ١٤١٤ه.

٢١. كتاب التعريفات، علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني (ت ٨١٦هـ)، المحقق: ضبطه وصححه جماعة من العلماء، دار الكتب العلمية بيروت –لبنان، ط١ ١٤٠٣هـ –١٩٨٣

٢٢. كتاب العين، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري.

٢٣. الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (ت ٥٣٨هـ)، دار الكتاب العربي – بيروت، ط٣ – ١٤٠٧هـ..

٢٤. لسان العرب، محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى (ت ٧١١هـ)، دار صادر – بيروت، ط١ – ١٤١٤هـ.

٢٥. لطائف الإشارات، تفسير القشيري، عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري (ت ٤٦٥هـ)، المحقق: إبراهيم البسيوني، الهيئة المصرية العامة للكتاب – مصر، ط. ٣

٢٦. مجمل اللغة لابن فارس، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي أبو الحسين (ت ٣٩٥هـ)، دراسة وتحقيق: زهير عبد المحسن سلطان بيروت، ط٢، ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م.

٢٧. معجم متن اللغة (موسوعة لغوية حديثة)، أحمد رضا (عضو المجمع العلمي العربي بدمشق) دار مكتبة الحياة – بيروت.

٢٨. معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (ت ٣٩٥هـ)، المحقق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م.

٢٩. مفاتيح الغيب، الإمام العالم العلامة والحبر البحر الفهامة فخر الدين محمد بن عمر التميمي الرازي الشافعي، دار الكتب العلمية – بيروت – ١٤٢١هـ – ٢٠٠٠م، ط١.

٣٠. المفردات في غريب القرآن، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى (ت ٥٠٢هـ)المحقق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية – دمشق بيروت، ط١ – ١٤١٢هـ.

٣١. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي (ت ٨٨٥هـ)، دار الكتب العلمية – بيروت – ١٤١٥ –هـ – ١٩٩٥م.

الوجوه والنظائر الحسين بن محمد الدامغاني، لألفاظ كتاب الله العزيز، مطابع الأهرام التجارية، القاهرة، ٢٠٠٣م.